الفلتان الأمني !!

أسبابه، وآثاره، وعلاجه

إعداد: رَائِدِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ الْمَهْدَاوِيِّ

قال ابن كثير ـ السَّلَفِيُّ (ت774) ـ رحمه الله ـ: "وقوله ـ تعالى ـ: إخبارًا عن الخليل أنه قال: "رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا" أي: من الخوف، لا يَرْعَبُ أهله، وقد فعل الله ذلك شرعًا وقدرًا، كقوله ـ تعالى ـ:"وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا" [آل عمران : 97] وقوله:"أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ" [العنكبوت: 67] إلى غير ذلك من الآيات " ا.هـ.

وقال الفخر الرازي ـ الأشعري (ت606) ـ في تفسيره:" المراد من الآية دعاء إبراهيم للمؤمنين من سكان مكة بالأمن والتوسعة بما يُجلب إلى مكة؛ لأنها بلد لا زرع ولا غرس فيه، فلولا الأمن لم يجلب إليها من النواحي وتعذر العيش فيها، ثم إن الله ـ تعالى ـ أجاب دعاءه وجعله آمناً من الآفات، فلم يصل إليه جبَّار إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل ... والدنيا إذا طلبت ليتقوى بها على الدين، كان ذلك من أعظم أركان الدين، فإذا كان البلد آمناً وحصل فيه الخصب تفرغ أهله لطاعة الله ـ تعالى ـ وإذا كان البلد على ضد ذلك كانوا على ضد ذلك... وأنه ـ تعالى ـ جعله مثابة للناس، والناس إنما يمكنهم الذهاب إليه إذا كانت الطرق آمنة، والأقوات هناك رخيصة... والأمن والخصب مما يدعو الإنسان إلى الذهاب إلى تلك البلدة، فحينئذ يشاهد المشاعر المعظمة، والمواقف المكرمة، فيكون الأمن والخصب سبب اتصاله في تلك الطاعة " ا.هـ

ولقد امتنَّ الله ـ تعالى ـ على قريش بما أنعم عليهم من نعم الاجتماع، والائتلاف، والرزق، والأمن، فقال ـ سبحانه ـ (لإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

فقوله ـ تعالى ـ: "الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خوْفٍ" بمثابة التعليل لموجب أمرهم بالعبادة؛ لأنه ـ سبحانه ـ الذي هيأ لهم هاتين الرحلتين، اللتين كانتا سبباً في تلك النعم عليهم، فكان من واجبهم أن يشكروه على نعمه، ويعبدوه وحده.

وفي قوله ـ تعالى ـ "فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَذا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خوْفٍ" ربط بين النعمة وموجبها، كالربط بين السبب والمسبب، ففيه بيان لموجب عبادة الله ـ تعالى ـ وحده، وحقُّه في ذلك على عباده جميعاً، وليس خاصاً بقريش، عملاً بالقاعدة المقرَّرة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: " ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال:"فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ " أي: فليوحدوه بالعبادة، كما جعل لهم حرما آمناً وبيتا محرماَ، كما قال ـ تعالى ـ:"إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ " [النمل:91] وقوله:"الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ " أي: هو رب البيت، وهو " الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ " أي: تفضل عليهم بالأمن والرخص، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنمًا، ولا نداً، ولا وثناً. ولهذا من استجاب لهذا الأمر جَمَع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما قال ـ تعالى ـ:"وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ " [النحل:112-113] " ا.هـ

ولأهمية الأمن بالنسبة للمسلم جعله الشرع أحد أسباب السعادة وموجباتها كما في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "مَنْ أصبحَ منكم آمناً في سِربِه، مُعافىً في جسدِه، عندَه قوتُ يومِه، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها". أخرجه الترمذي (2346)، وابن ماجه (4141)، وهو في "السلسلة الصحيحة" (2318) للإمام الألباني ـ رحمه الله ـ.

ولأهميته كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو إذا رأى الهلال بقوله: "اللهم أهلّه علينا باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك الله" أخرجه الترمذي، واحمد، والحاكم، وهو في " السلسلة الصحيحة" (1816).

ولأهميته شرع الإسلام نظام العقوبات؛ من حدود، وقصاص، وتعزير؛ أخذاً على أيدي العابثين بأمن المجتمع، والمفسدين في الأرض، وردعاً لكل من تزيّنُ له نفسه الإخلال والإفساد.

أخرج أحمد، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم ـ وهو في "السلسلة الصحيحة" (231) ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: "حدٌّ يُعمَل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمطَروا أربعين صباحاً".

وقبل ذلك أمر الشرع بالاجتماع، والاعتصام، والائتلاف، ونهى عن التحزّب، والتفرّق، والاختلاف؛ حرصاً على أمن المجتمع المسلم؛ لأنَّ تلك السوءات الخلقية المنهجية تؤدي إلى الضعف، والفشل، والهزيمة، وحث على أن يكون المسلمون صفاً واحداً في اعتقادهم، وعباداتهم، وكلمتهم.

فقال ـ تعالى ـ: " "وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" [آل عمران:103].

وقال ـ تعالى ـ:" وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" [آل عمران : 105].

وقال ـ تعالى ـ:"مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ" [الروم:31ـ 32]

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ في تفسيره: "ولا تكونوا من المشركين، الذين بدلوا دينهم، وخالفوه، ففارقوه، (وكانوا شيعاً) يقول: وكانوا أحزاباً فرقاً، كاليهود والنصارى".

وقال ـ تعالى ـ:"إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ" (الأنعام : 159).

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره: " والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه (وكانوا شيعاً) أي: فِرَقًا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله تعالى قد برَّأَ رسوله r مما هم فيه ".

وقال صلى الله عليه وسلم : " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: "هي الجماعة ". وفي رواية: " من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي". أخرجه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وهو في "السلسلة الصحيحة" (204، 1492).

وحذَّر ديننا الحنيف من الفتن التي تعصف بالأمة الإسلامية، وتؤدي إلى سفك المسلم دمَ أخيه المسلم، واستحلال الحرمات، وإزهاق الأنفس البريئات، وما إلى ذلك من مفسدات أمن المجتمع، وهي ـ أي الفتن ـ وإن كانت ولابد واقعة ـ قدراً كونياً ـ إلا أنَّ الشرع المطهّر بيّن سبل الوقاية منها قبل وقوعها، وطريقة معالجتها بعد وقوعها.

فمن الأوَّل:التفقّه في الدين، والتسلّح بالعقيدة السلفية الصحيحة، وقراءة أحاديث الفتن وأشراط الساعة وآثارها الصحيحة مع التدبر والتفهم، والاستعاذة بالله من مضلاَّت الفتن، والقيام على العبادة والعمل الصالح، ومعرفة أهل الذكر ـ العلماء الربانيين الراسخين ـ وسؤالهم، والالتفاف حولهم، وتعظيمهم.

ومن الثاني: النأي بالنفس عن الفتن، وعدم استشرافها، وترك القتال فيها، أو الإعانة عليه، وكسر السلاح، وتحريم بيعه، والصبر على البلاء إن وقع.

لا يُتصوَّرُ أمنٌ بلا إيمانٍ في الأمَّة الإسلاميَّة

فحصول الأمن الحقيقي منوط بتحقيق الإيمان في النفوس وفق منهج السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ، والقيام بتوحيد الله ـ تعالى ـ، ونبذ الشرك، والبراءة منه ومن أهله، وتحقيق معنى العبودية لله ـ تعالى ـ؛ باتباع أمره، واجتناب نهيه. ومهما حاول الناس تحصيل الأمن المنشود بمعزل عن فهم مسائل الإيمان وتطبيقها في الحياة على منهج السلف الصالح، واعتماداً على الأسباب المادية فقط، فلن يجنوا إلا مزيداً من الفشل والضعف في تحصيل مقصودهم. وهذا من سنن الله ـ تعالى ـ الكونية التي لا تتبدل، وقد قرره القرآن في آيات كثيرة، كقوله ـ تعالى ـ: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ". [النور: 55].

وقوله ـ تعالى ـ: "وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(40) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ". [الحج: 40ـ41].

وقوله ـ تعالى ـ:"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ". [الأعراف: 96].

وقوله ـ تعالى ـ عن بني إسرائيل ـ ولنا فيهم عظة وعبرة ـ: "وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ". [المائدة: 66].

وقال ـ تعالى ـ: "وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ". [النحل: 112].

فالإيمان الصحيح شرط تحقيق الأمن النفسي والمجتمعي، ومن ثمرات هذا المنهج حصول الأمن على مستوى الأفراد لمن حقق الشرط، وإن لم يتحقق الأمن المجتمعي لفوات الشرط

في الجملة. ومعنى ذلك أنَّ صاحب العقيدة الصحيحة والمنهج السويّ يأمن إذا فزع الناس، ويثبُت إذا فتنوا، ويصبِر إذا قنطوا، ويستمر على الطاعة لله إذا ملّوا ويئسوا، فهو أحق الناس بالأمن في الدنيا والآخرة، كما أخبر ـ تبارك وتعالى ـ في سورة الأنعام عن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ في محاجّته لقومه:"وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81) الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ " [الأنعام 81ـ 82] .

وما يحصل في بلادنا المباركة في هذه الأيام من فوضى وانعدام أمن، أو ما درجت الألسن على إطلاق مصطلح " الفلتان الأمني" (!!) عليه، ليس إلا ثمرة ونتيجة لغياب(أو تغييب!!) التوحيد من النفوس، فالخاصة قبل العامة ـ إلا من رحم الله ـ ما عرفوا ربهم بألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته، وكان من نتائج ذلك فشوّ الشرك، والذي من صوره اتخاذ القبور مساجد، وإقامة القباب عليها، وتشييدها، وشد الرحال إليها، وحدّث ولا حرج عن الموبقات التي تحصل على عتباتها؛ من دعاء، واستغاثة، وخوف، ونذر لغير الله، وما إلى ذلك من المحدثات.

وكثير من الخاصة، كبعض المفتين، والحركيين الحزبيين، يحرفون الكلم عن مواضعه؛ اتباعاً للهوى، فيزينون للناس منكراً عظيماً مفاده: أنّ هذه المقامات مساجد إسلامية يجب المحافظة عليها؛ كي لا يستولي عليها اليهود! زعموا!!.

فانعدام الأمن وفلتانه ما هو إلا جزاء وفاقاً من الله ـ تعالى ـ لمّا أحدث الناس، وأعرضوا عن دينهم، واختلفوا فيه.

فالداء هو الداء، والعلاج هو العلاج: "حتى ترجعوا إلى دينكم".

وبعد هذا أما آن لهذه الطوائف المختلفة أن تؤوب إلى رشدها فتلقيَ المصالح الشخصية، والأهواء الحزبية وراء ظهرها؟!

أما آن لمن قصّر منهم وفرّط في كتاب ربه وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعود ويتدارك؟!

أما آن لمن غلا منهم وأفرط، وأوَّل وأفسد، وضلّ وأضلَّ، وغرّر ولبّس، أن يبرأ إلى الله من ذاك المنهج المنحرف، ويعلنها صريحة على الملأ؟!

أما آن لهم جميعاً أن يعلموا أنّه لا أمن ولا اطمئنان إلا في ظلّ هذه الدعوة السلفية الأثرية المباركة؟!

فإن لم يفعلوا فليرتقبوا إنا مرتقبون، ولينصرنَّ الله هذه الدعوة المباركة، فهي دعوته، والوعد بنصرها والتمكين لها وعده، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم.